PP-628-643
P-ISSN: 2716-8093 E-ISSN: 2716-8212

نقد النموذج المعرفي الغربي عند عبد الوهاب المسيري

Criticism of the Western cognitive model according to Abdel Wahab El-Messiri

لحسن عبد المالك
جامعة محمد بن أحمد وهران
abdelmalekahmedlahcene@gmail.com

-تاريخ الاستلام:2024/08/06 -تاريخ القبول: 2024/11/26 -تاريخ النشر: 2024/12/10

الملخص: تحتل مقولة النماذج المعرفية مكانة مركزية في كتابات المفكر المصري الراحل عبد الوهاب المسيري، بحيث لا تكاد تجد له كتابا أو دراسة إلا وفي القلب منها فكرة النماذج المعرفية، فالشاغل الأساسي عند المسيري في كل ما يعرض له من أحداث أو مواقف أو الظواهر هو الإمساك بالثابت الكامن خلف المتغيرات الكثيرة، والقبض عن النموذج الذي تصدره عنه الرؤى والأفكار والمناهج المختلفة

لذا كان التوجه المنهجي في نقد المسيري للحضارة الغربية هو بالكشف عن النموذج المعرفي الذي قامت عليه الحضارة الغربية واستظهار تحيزاته الكامنة، والتي جعلت منه -كما يتصور المسيري - نموذجا معاديا للإنسان في بعده الروحاني والأخلاقي.

يسعى المقال إلى التعريف بجهود المسيري في الكشف عن النماذج المعرفية عموما، ونقده للنموذج المعرفي الغربي خصوصا.

كلمات مفتاحية: النموذج المعرفي.، المسيري.، التحيز.، الحضارة الغربية.، الغائية.، المادية.، الطبيعي.، الواحدية.

Abstract Abd Elwahab El Massiri is known as famous Egyptian Scholar.Hi gives a great importance to the paradigms of knowledge and the cognitive models , however;all his researches and his writing includes some quotes about the cognitive models, he tends to hold , in all the subjects that he deals with (event, thoughts, attitudes), the invariable line which lays beneath the variant changing things, so that he uses in his researches , the analyzing , dissociation , composition and criticizing method, without paying much attention to an independent information and the knowledge which is separated from the paradigm beneath it. El MASSIRI certifies that consciously or unconsciously(every human gets to use cognitive model), therefore EL MASSIRI warns us in using of danger of adopting any method or any philosophy, or, any kind of thinking, without taking into consideration the cognitive model standing beneath it.
Keywords: cognitive model, processivism, bias, Western civilization, teleology, materialism, naturalism, monism.

المؤلف المرسل: لحسن عبد المالك **الإيميل: abdelmalekahmedlahcene@gmail.com**
Langues & Cultures / © 2024 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.
This is an open access article under the CC BY license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

مقدمة:

يُعرف عن المفكر المصري الراحل عبد الوهاب المسيري[1] عنايته الفائقة، واهتمامه الكبير بفكرة النماذج المعرفية، بحيث لا تكاد تجد له كتاباً أو بحثاً في شتى حقول المعرفة الإنسانية يكاد يخلو من مقولة النموذج أو منهجية النماذج المعرفية، لأن المسيري يميل في كل شيء يعرض له (أحداث ووقائع أو أفكار ومواقف) إلى الإمساك بالخيط الناظم أو الثابت الكامن وراء الأشياء المتغيرة والمتعددة، لذا تراه ينحو في دراساته وابحاثه المتنوعة منحى التحليل والتفكيك والمقارنة والتركيب، دون اهتماماً كبير بالمعلومة المستقلة أو المعارف المنفصلة عن النموذج الكامن خلفها، فلطالما أكد المسيري على فكرته القائلة بأن: "كل إنسان شاء أم أبى يستخدم نماذج معرفية"[2] (المسيري:2000)،سواء كان ذلك عن وعياً منه أو عن غير وعي، بقصد أو دون قصد. من أجل ذلك أخذ المسيري على عاتقه مهمة تحذيرنا من خطورة تبني أي منهج من المناهج أو أية فلسفة من الفلسفات، أو أي طريقة من طرق التفكير والتدبير دون النظر في النموذج المعرفي الذي يقف خلفها.

من هذا المنطلق اتجه المسيري في رؤيته النقدية للفكر الغربي نحو البحث في أصوله ومرجعياته الكبرى، لا البحث في أعراضه ومظاهره البسيطة. ذلك أن أخطر ما في الحضارة لا يتجلى في منتوجاتها المادية وأشيائها العينية، بل في الرؤى والنماذج التي تنبني عليها أو ترتد إليها، من هنا سعى المسيري إلى الكشف عن حقيقة النموذج المعرفي الغربي وفضح تحيزاته الكامنة وصولاً إلى تجاوزه واستحداث بديل معرفي عنه.

نحاول في هذه الدراسة الوجيزة أن نسلط الضوء على جوانب من اسهامات المسيري الكثيرة والمتعددة بخصوص نقد النموذج المعرفي الغربي، وذلك بالسعي إلى الإجابة عن التساؤلات الآتي:

. ما المقصود بمصطلح النموذج المعرفي من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية؟

. ما هي أبرز ملامح ومعالم النموذج المعرفي الغربي؟

. كيف يمكن الكشف عن تحيزاته المتوارية، وتعريت مرجعياته الكامنة؟

1. النموذج المعرفي: الدلالة اللسانية والاصطلاحية

يستخدم المسيري مفهوم النموذج المعرفي بدلالات مختلفة ومرادفات متعددة، لذا نرى من المهم الوقوف على تلك الدلالات والمرادفات للكشف عن ماهية النموذج وبيان حقيقته اللغوية والاصطلاحية.

[1] - ولد د. عبد الوهاب المسيري بدمنهور إحدى محافظات مصر عام 1938م حصل على الدكتوراه في الأدب الانجليزي المقارن من جامعة رتجرز الأمريكية، للمسيري العديد من الدراسات والابحاث التي تتوزع بين النقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والقصة وأشهر أعمال نجد: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، توفي المسيري في 3 من يوليو عام 2008.

[2] - المسيري، عبد الوهاب (في أهمية الدرس المعرفي)، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 20، السنة السادسة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينا الو م أ، ص **124.**

1/2الدلالة اللسانية للنموذج:

النموذج في معاجم اللغة العربية، جمعها نماذج ونموذجات هي كلمة معربة تعود جذورها إلى الكلمة الفارسية "نموذة" التي تعني " مثال الشيء"[3](التونجي:1969)، ويشير الفيروز آبادي في قاموسه إلى أن:" النموذج بفتح النون: مثال الشيء معربة"[4](آبادي الفيروز)، ومنه قولنا: نموذج البناء، أي نسخة مبسطة مجردة من بناء، ومن ثم فهو يحتوي العناصر الأساسية للبناء، لكنه يختلف عن الأصل"[5](المسيري:1999).

ومن المفردات التي تشترك مع كلمة نموذج في الحقل الدلالي نفسه، نجد في اللغة العربية مثلاً: نمط، نسق، هيكل، نظرية، منظور، رؤية، بنية..إلخ. وفي اللغات الأجنبية نجد مثلاً: موديل (Model) تايب (Type) سيستم (Systm) ايديال تايب (Ideal Tyep) باردايم (paradigm)، تشير هذه المفردات في دلالاتها المتباعدة أحيانا، والمتقاربة أحيانا أخرى، إلى أن النموذج من الناحية اللغوية هو بمثابة صورة مصغرة وافتراضية للأشياء كما ندركها.

1/3. الدلالة الاصطلاحية:

يعطي المسيري لمفهوم النموذج دلالة اصطلاحية خاصة تختلف بعض الشيء عن تلك الدلالة التي نجدها عنده غيره من المفكرين مثل: توماس كون الذي يعد أول من أشار إلى هذا المفهوم وسكه في كتابه الذائع الصيت "بنية الثورات العلمية"[6].(كون:1992)، فالنموذج المعرفي – كما يستخدمه توماس كون – "هو مجموعة متآلفة منسجمة من المعتقدات والقيم والنظريات والقوانين والأدوات والتكنيكات والتطبيقات، يشترك فيها أعضاء مجتمع علمي معين، وتمثل تقليدا بحثيا كبيرا، أو طريقة في التفكير والممارسة، ومرشدا أو دليلا يقود الباحثين في حقل معرفي ما"[7].

بينما تقتضي الإحاطة بماهية النموذج المعرفي عند المسيري أن نقوم بتفكيك المفهوم المركب إلى عناصره الجزئية لنصل في النهاية إلى إدراك ماهيته الكلية.

1/4النموذج

يعّرف المسيري النموذج بقوله:" هو صورة عقلية مجردة ونمط تصويري، وتمثيل رمزي للحقيقة، وهو نتيجة عملية تجريد (تفكيك وتركيب)، إذ يقوم العقل بجمع بعض السمات من الواقع فيستبعد بعضها ويبقي بعضها الآخر، ثم يقوم بترتيبها بحسب أهميتها ويركبها، بل وأحياناً يضخمها بطريقة تجعل العلاقات تشكل ما يتصوره العلاقات الجوهرية في الواقع"[8] (المسيري:1996)، يبدو واضحاً أن التعريف الذي صاغه المسيري يكتنفه بعض الغموض والالتباس، لذا يستعين المسيري بجملة من المرادفات لتقريب المعنى المجرد وتبسيط المفهوم المركب، ومن بين تلك المرادفات نذكر:

---

[3]- التونجي، محمد، المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1969، ص574.
[4] - آبادي، الفيروز، القاموس المحيط، دار الهدى، الجزائر، د ط - د س، ص271.
[5] - المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج1، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999، ص107.
[6] - تبلور مصطلح النموذج (paradigm)، في بدايته على يد توماس كون في كتابه " بنية الثورات العلمية"الذي ألفه عام 1962 حيث أعطى لهذا المفهوم أكثر من عشرين دلالة مختلفة حصرها في الأخير في دلالتين : الأولى عامة سماها الاجتماعية والثانية خاصة سماها الدلالة الابستمولوجية. ينظر: بنية الثورات العلمية، كون توماس، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد168، 1992.
[7] محمد عارف، نصر، ابستمولوجيا السياسة المقارنة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص58.
[8] - المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، الجزء الأول، فقه التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فيرجينيا (الو م أ)، ط1، 1996، ص17.

أ. النمط المثالي: يقصد به المنهج الذي تبناه العالم الألماني ماكس فيبر Weber Max(1920/1864) بوصفه أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع وإبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح ومعرفة آثارها على الأرض، والنمط المثالي كما استقر مفهومه عند ماكس فيبر لا يفترق كثيراً عن النموذج المعرفي كما استخدمه المسيري، وهو ما عبر عنه بقوله:" كما أن كلمة (النموذج) قريبة في معناها من مصطلح النمط المثالي (Ideal Type) الذي استخدمه ماكس فيبر أداةً تحليلية"[9](المسيري:2002)

ب . الخريطة: يستخدم المسيري مصطلح الخريطة الإدراكية أو المعرفية مرادفاً للنموذج المعرفي، حيث يقول:" النموذج أعرفه على أنه خريطة معرفية"[10](المسيري:1999)، والقاسم المشترك بينهما هو أن الخريطة هي بمثابة صورة في عقل الإنسان يتصور أنها تعكس الواقع، إنها تشكل إطار أو مرجع لفهم ما يراه الشخص أو يسمعه ويشعر به، يقول عبد الكريم بكار في هذا السياق:" إن الخريطة الإدراكية التي يمتلكها الواحد منا هي نموذجه الشخصي الذي يجعله يركز على بعض التفاصيل التي يطلع عليها، ويهمل تفاصيل أخرى لأنها تافهة أو غير مهمة"[11](بكار:2011).

ج . البنية: ينظر المسيري إلى النموذج باعتباره "بنية تصويرية"[12](المسيري:1997) يجردها الإنسان من كم هائل من المعلومات والعلاقات والتفاصيل. ويقصد المسيري بلفظ البنية: هي شبكة العلاقات التي يعقلها الإنسان ويجردها بعد ملاحظته للواقع في كل علاقاته المتشابكة، ويرى أنها تربط عناصر الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه، وأنها القانون الذي يضبط هذه العلاقات"[13](المسيري:2003)، والبنية في تصور المسيري ليست مجرد هيكل خارجي للشيء أو وحدته المادية الظاهرة، بل هناك بنية عميقة كامنة في صميم الشيء تمنحه هويته وتضفي عليه خصوصيته.

د. Theme: يؤكد المسيري في كتابه "دفاع عن الإنسان" على أن كلمة نموذج كما يوظفها ويستخدمها قريبة في معناها من كلمة Theme(ثيم) الانجليزية التي تعني" الفكرة المجردة والمحورية في عمل أدبي ما، والتي تتجاوز العمل ولكنها كامنة فيه، وفي كل أجزائه تمنحه وحدته الأساسية، وتربط بين عناصره المختلفة"[14](المسيري:2014). ولعل الخاصية المشتركة بين النموذج ودلالة Theme هي حالة الكمون، بحيث لا يمكن رصده بشكل مباشر، بل ينبغي ممارسة آلية التفكيك والتجريد للوصول إلى ما هو كامن في الموضوع.

تلتقي هذه المرادفات الأربعة التي أوردها المسيري مع مفهوم النموذج في خاصيتان أساسيتان أو في سمتان جوهريتان: الأولى أنها عقلية تصويرية، والثانية أنها مجردة، وكلتهما تحددان طبيعة وصفات النموذج الجوهرية المتمثلة في كونه: فكرة ذهنية وليس "حقيقة إمبريقية"، أي أنه ليس كائناً موجوداً بالفعل في عالم الأعيان، أما سمة التجريد فهي تسمح بعزل صفة ما أو علاقة ما عزلاً ذهنياً، وهي عملية تحديد وفصل يتم بواسطتها استبعاد جزئيات وتفاصيل تبدو لصاحبها غير ذات أهمية وصولاً إلى الظاهرة المراد فهمها والإحاطة بكنهها.

1/4المعرفي:

[9] ـ المسيري، عبد الوهاب، الإنسان والحضارة والنماذج المركبة، سلسلة الهلال، مصر، العدد 622، 2002، ص26.
[10] ـ المسيري، عبد الوهاب، حوار مع جريدة المستقلة، العدد262، السنة السابعة، 1999، ص10.
[11] ـ بكار، عبد الكريم، تكوين المفكر، مؤسسة الإسلام اليوم، دار وجوه للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2011، ص113.
[12] ـ المسيري، عبد الوهاب، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص229.
[13] ـ المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج8، ص21.
[14] ـ المسيري، عبد الوهاب، دفاع عن الإنسان، دار الشروق، القاهرة، ط8، 2014، ص300.

يقترن مفهوم النموذج عند المسيري بلفظ "المعرفي" فالنموذج المقصود هو النموذج المعرفي، لذا يصر المسيري على أن "لكل نموذج بُعده المعرفي"[15](المسيري:1996).

فماذا يعني المسيري بـ **البُعد المعرفي؟**

كتب المسيري في مجلة إسلامية المعرفة مقالاً بعنوان" في أهمية الدرس المعرفي" جاء فيه: "أننا نبدأ هذه الدراسة بتعريف مصطلح (المعرفي) في مقابل السياسي والاقتصادي والتاريخي"[16](المسيري:2000)، وفي موضع آخر من المقال يقول:" عادة ما نضع المستوى المعرفي في مقابل المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، بل الحضاري"[17]('المسيري:2000).

يصبو المسيري من خلال التقابل الذي وضعه بين المعرفي والمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية أن ينبهنا إلى أن دلالة المعرفي -كما يوظفها - أوسع وأشمل من الدلالة التي نجدها في حقل فلسفة العلوم **(Epistemology)**، فالمعرفي لا يعني ذلك التحليل الذي يكتفي برصد العناصر والجزئيات في الوجود الإنساني، إنما يعني المعرفي " الكلي" و"النهائي"، والكلي مقابل الجزئي ويفيد معنى الشمول والعموم، أما كلمة "نهائي" فتعني نهاية الشيء، أي غايته وأخره وأقصى ما يمكن أن يحققه.

إن المعرفي في منظور المسيري يرنو إلى "إدراك الحقيقة الكلية والنهائية الكامنة وراء ظاهرةٍ أو نصاً ما"[18](المسيري:2000)، ولا يتم ذلك إلا من خلال "عملية تجريدية تزيح جانباً التفاصيل التي يراها الباحث غير مهمة، وتُبقي السمات الأصلية الجوهرية للشيء"[19](المسيري:2000).

أما حضور البُعد المعرفي خلف النموذج، فيشير عند المسيري إلى أن "خلف كل نموذج (وخلف عمليات الإبقاء والاستبعاد والتركيب والتضخيم) معاييره الداخلية التي تتكون من معتقدات وفروض ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية، تشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق وتزوده ببعده الغائي"[20](المسيري:2000)، ما يعني أن البُعد المعرفي في كل نموذج ما هو إلا تلك المعايير الداخلية التي تشكل الأرضية الثابتة والمرجعية النهائية الحاكمة التي تجيب عن الأسئلة النهائية والكلية للنموذج[21](العلواني:2010).

يقوم النموذج المعرفي، الذي يمثل قاعدة لكل الرؤى البشرية، على ثلاثة تساؤلات جوهرية "يختص السؤال الأول بعلاقة الإنسان بالطبيعة/ المادة، فهل الإنسان هو وجود طبيعي/ مادي محض أو أنه يتميز بأبعاد أخرى لا تخضع لعالم الطبيعة/ المادة؟ ويختص السؤال الثاني بالهدف من الوجود، فهل هناك هدف من وجود الإنسان في الكون؟ وما هو المبدأ الواحد للكون الذي يمنحه هدفه وتماسكه ويضفي عليه المعنى؟ أما السؤال الثالث فيختص بمشكلة المعيارية، من أين يستمد الإنسان معياريته؟"[22] (الحاج أحمنة:2012).

---

[15] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، مقدمة إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص17.

[16] ـ المسيري، عبد الوهاب (في أهمية الدرس المعرفي)، مجلة إسلامية المعرفة، السنة السادسة، العدد 20، 2000، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الوم أ)، ص110.

[17] ـ المسيري، عبد الوهاب، المصدر نفسه، ص112.

[18] ـ المسيري، عبد الوهاب، (في أهمية الدرس المعرفي)، مصدر سابق، ص112.

[19] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[20] ـ المصدر نفسه، ص109.

[21] ـ هناك أسئلة أساسية حول الإنسان وخلقه وإيجاده وخالقه وغايته تسمى بالأسئلة النهائية والإجابة عن تلك الأسئلة من شانها ان تعبر عن "الرؤية الكلية للإنسان" ينظر: العلواني، طه جابر، معالم في المنهج القرآني، دار السلام، القاهرة، ط1، 2010، ص82.

[22] ـ دواق، الحاج بن أحمنة، (المنهج المعرفي التوحيدي عند عبد الوهاب المسيري: مدخل إلى الإبستمولوجيا التوحيدية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد68، السنة 17، 2012، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص100.

في المحصلة النهائية يجب أن نؤكد على حقيقة تبدو بديهية عند المسيري، وهي أن "كل الأشياء والظواهر والأفكار المحيطة بنا، المهم والتافه، تجسد نموذجا حضارياً متكاملاً، وتستند إلى رؤية شاملة تحوي بداخلها إجابة عن الأسئلة الكلية النهائية التي تواجه الإنسان"[23](المسيري/العظمة:2000). وبالتالي فإن النموذج المعرفي هو ذلك النموذج الذي يصل إلى الصيغ الكلية والنهاية للوجود الإنساني. إذ لا معنى لإدراك ظاهرة إنسانية ما، دون القبض على النموذج الكامن خلفها، فكل ما يصدر عن الإنسان من أفكار وفلسفات وإنتاج مادي أو معنوي لا شك يصدر عن نموذج ويتضمنه ويعبر عنه.

2/2النموذج المعرفي الغربي: معالمه وسماته وتحيزاته

لماذا النموذج المعرفي الغربي دون سواه؟

يحتل النموذج المعرفي الغربي مكانة مركزية في جل ما صاغه المسيري من أفكاره وما أبدعه من أبحاث ونظريات، بل يمكن اعتبار النموذج المعرفي الغربي لدى المسيري بمثابة الهاجس الأكبر والهم الأعظم الذي يحرك فكره، ويقف خلف تصوراته ومشاريعه، فلطالما آمن المسيري بأن أية محاولة للنهوض الحضاري، وأي مسعى حثيث من أجل الخروج من مأزق التخلف والركود الذي تكابده الأمة العربية والإسلامية يبدأ - في رأيه – "من إدراك حتمية دراسة النموذج المعرفي الغربي والكشف عن تحيزاته الكامنة".

يجيبنا المسيري في مقدمة كتاب إشكالية التحيز عن سؤال العناية بالنموذج المعرفي الغربي قائلا:" وهذا النموذج (يعني النموذج المعرفي الغربي) هو أكثر النماذج المعرفية شيوعاً وسطوة، لأن الاستعمار الغربي قام بهزيمة العالم واقتسامه، وبتدويل نموذجه الحضاري وفرضه على الكثير من المجتمعات، إما من خلال القمع أو الإغواء، أو حتى أحياناً من خلال خاصية الانتشار حتى أصبح الكثيرون يظنون أن هذا النموذج عالمي"[24](المسيري:1998).

بيّن المسيري في هذه الفقرة الأسباب الحقيقية والدوافع الجدية التي جعلته ينخرط في دراسة النموذج المعرفي الغربي، فذكر على رأسها هيمنة النموذج المعرفي الغربي على العالم بأسره ، وذلك بسبب انتصار وانتشار نمط الإنسان الغربي سواءً من خلال القمع (الاستعمار) أو من خلال الإغواء (الثقافة والحضارة)، أي أن تفوق النموذج المعرفي الغربي وسيطرته على العالم، إنما يعود إلى أمرين أساسيين: الأول مرتبط بالذات الغالبة (الغرب) الذي استطاع بواسطة استعداداته الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية أن يقدم صورة مشرقة وجذابة عن ذاته من جهة، وصورة مشوهة وناقصة عن الآخر من جهة ثانية، فهذا النموذج في نظر حسن حنفي "خلق عقدة عظمى لدى الغرب، فهو حضارة العقل والعلم والحرية والعدالة والتقدم والعمران، التاريخ تاريخه والعلم علمه، القيم قيمه، والثورة ثورته، والحاضر حاضره والمستقبل مستقبله"[25](حنفي:2007). أما الأمر الثاني فيعود إلى الذات المغلوبة (الذات العربية في هذه الحالة) التي نظرت إلى الغرب باعتباره نقطة مرجعية ونهائية، وبالتالي آمنت بعالميته وبكونية كل ما يصدر عن الغرب، وأصبح هاجس اللحاق به هو الهاجس الأكبر للنخب الثقافية وهو جوهر أغلب مشاريع النهضة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ضف إلى ذلك بساطة النموذج وجاذبيته المادية ما يعزز سطوته على النفوس وهيمنته على العقول.

[23] ـ المسيري، عبد الوهاب، والعظمة، عزيز، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط2000،1، ص20.
[24] ـ المسيري، عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص34.
[25] ـ حنفي، حسن، حصار الزمن، مج 1 إشكالات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص739.

الغرب في وعي المسيري ليس كتلة واحدة متجانسة، إنما هناك أكثر من غرب، وهناك أكثر من نموذج، "فقولنا أن النموذج المهيمن هو النموذج المادي، لا يعني أنه النموذج الوحيد، فالمثقفون الغربيون يدورون في إطار نماذج معرفية أخرى: النموذج المسيحي، النموذج الإنساني، النموذج الاحتجاجي..(إلخ)، تتحدى النموذج المهيمن، ولكنها مع هذا لا تتمتع بالمركزية نفسها أو الفعالية في المجتمع، فالنموذج المعرفي (المادي) هو النموذج الذي تنظر المؤسسات السياسية والثقافية الغربية للواقع من خلاله وتتعامل مع ذاته ومع العالم في هديه"[26].

ويتم تجريد النموذج المعرفي واستخلاصه من مجموعة من الوقائع أو الجزئيات والأفكار المختلفة، حتى مما يبدو أنها أفكار محايدة وبريئة كفكرة الإنسان الطبيعي، وفكرة وحدة العلوم ومقولة نهاية التاريخ، ومن " المجازات المتداولة في المنظومة المعرفية الغربية كمجاز نيوتن المعروف بـ العلم كالساعة، ومن الصور المجازية المتداولة في الحضارة الغربية كصورة "بروميثيوس" الذي سرق نار المعرفة من الآلهة لكي يعطيها للبشر"[27](بلعقروز:2009). كما يتم تجريده من الأبنية والمنازل التي تجسد الرؤية الكونية للإنسان الغربي، ومن الإعلانات التلفزيونية ومن الأفلام، ومن مجمل التحولات الاجتماعية، ومن رصد الظواهر المختلفة، باختصار يتم تجريد النموذج المعرفي الغربي " من الحضارة بكل إنتاجاتها وابداعاتها وحقولها المعرفية"[28](مرزاق:2007)، فالنموذج المعرفي الغربي موجود في كل ما يتصل بالغرب أو يصدر عنه، فلن تجد فلسفة أو نظرية علمية، أو منتوج ثقافي، أو ممارسة اجتماعية، أو حركة اقتصادية إلا والنموذج كامن خلفها، فقط عليك البحث عنه واستخلاصه من الظواهر وتجلياتها والأشياء وتمظهراتها.

.

2.2 سمات النموذج المعرفي الغربي:

يتصف النموذج المعرفي الغربي بسمات ومعالم حددها المسيري في ثلاثة هي: "أنه نموذج عقلاني، نفعي، مادي".

أ. نموذج عقلاني: العقلانية التي يتسم بها النموذج المعرفي الغربي تعني تلك الرؤية التي تؤمن بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة بمفرده دون مساعدة من عاطفة أو إلهام، والعقلاني في تصور المسيري هو من يرى أن الواقع يحوي بداخله ما يكفي لتفسيره، وأن العقل هو من يتلقى حقائق الأشياء ويتفاعل معها. فالعقلانية في هذه الحالة ليست مجرد أداة للمعرفة، بل هي رؤية ومنهج وممارسة.

ب . نموذج نفعي: يرنو النموذج المعرفي الغربي إلى تحصيل أعظم المنافع والملذات الممكنة، وفي سبيل ذلك يتم التخلي عن كل القيم الأخلاقية والروحية، ليتحول العالم في نهاية الأمر إلى مجرد مادة استعمالية وسوق استهلاكية. فالنفعية هي المحرك لكل فاعلية إنسانية وهي الغاية المرجوة من أي مسعى إنساني. فمعيار صحة الأفكار والمواقف هو ما تحققه من منافع.

ج . نموذج مادي: يوظف المسيري كلمة (مادي) بمعناها الفلسفي، أي "الإيمان بأن المادة هي الأصل والمحرك الأساسي للكون"[29](المسيري، التريكي:2012). ويمكن اعتبار المادية هي الصفة الجوهرية للنموذج المعرفي الغربي، والمرجعية الكامنة التي ترجع إليها جميع السمات الأخرى، فالعقلانية في أخر الأمر هي عقلانية مادية (صلبة وسائلة)، كما أن المنفعة هي منفعة مادية خالصة، بل

[26] ـ المسيري، عبد الوهاب، العالم من منظور غربي، سلسلة الهلال، القاهرة، د ط، 2000، ص100.
[27] ـ بلعقروز، عبد الرزاق، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص68.
[28] ـ مرزاق، أحمد (النموذج المعرفي ونموذج المسيري الحضاري) كتاب عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده، دار الفكر، دمشق، 2007، ص186.
[29] ـ المسيري، عبد الوهاب، والتريكي، فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2012، ص16.

أن كل شيء يرتد إلى المادة/ الطبيعة، ويعود إليها ويفسر من خلالها، فخارج المادة لا يوجد شيء، البُعد المادي هو البُعد الوحيد والكامن، أنها واحدية مادية كامنة.

وقد سعى المسيري عبر توظيفه لما أسماه بـ " المتتالية النموذجية" و"اللحظة النماذجية" إلى أن يتتبع تطور ونمو وتحول تلك السمات العامة وبروزها في لحظات تاريخية معينة، فاستخدم مفهوم المتتالية النماذجية لدراسة تطور الحداثة الغربية إلى ما بعد الحداثة، وتطور العقلانية المادية الصلبة إلى اللاعقلانية المادية السائلة، وتصاعد العلمانية من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة، ليؤكد في نهاية المطاف على فكرته الأساسية وهي أن النموذج المعرفي الغربي ليس نموذجا ساكناً أو ثابتاً، بل هو نموذج متحول ومتطور يغير من جلده بحسب التحولات الاجتماعية والسياقات الثقافية والمعرفية.

3.2 تحيزات النموذج المعرفي الغربي:

يرى المسيري أن النموذج المعرفي الغربي بكل أبعاده المعرفية وانجازاته الحضارية يتضمن تحيزات كامنة في أعماقه، لا يمكن بأي حال أن نتعامل معه أو أن نصوب أنظار النقد نحوه دون محاولة الكشف عن تلك التحيزات واستظهارها، وهي تحيزات . في رأي المسيري . "نابعة كلها من واحديته المادية الناجمة عن تصفية ثنائية الإنسان والخالق، ومن ثم ثنائية الإنسان والطبيعة"[30](المسيري:1998)، بمعنى آخر أن الحضارة الغربية ونموذجها المعرفي هي حضارة اختزالية، اختزلت الأبعاد المتعددة للظواهر الإنسانية إلى بُعد واحد هو البُعد المادي، وهو ما أنتج مجموعة من التحيزات نحددها في الآتي:

أ. التحيز للطبيعي المادي على حساب الإنساني وغير المادي:

يعد هذا التحيز تعبير حقيقي عن الرغبة في تصفية ثنائية الإنسان/ الطبيعة لصالح الواحدية المادية، وتتجلى في محاولة تفسير ما هو إنساني بما هو طبيعي وغير إنساني، فيتحول الإنسان بذلك إلى كائن طبيعي أو مجرد شيء من الأشياء، يسري عليه من القوانين الكونية الصارمة، ومن الحتميات الطبيعية ما يسري على غيره من الجمادات والكائنات" فيخضع الإنسان بشكل مطلق لقوانين الضبط والقياس والتحكم والتفسير التي تُستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية، وتخضع الظواهر الاجتماعية لممارسات مناهج البحث في العلوم التجريبية نفسها"[31](المسيري:1998)، وهو ما عبر عنه أصدق تعبير فيلسوف الوضعية العلمية سان سيمون **Saint Simon(1760.1825)** حينما قال: "إن أكبر وأشرف وسيلة لدفع العلم نحو التقدم هو جعل العالم في إطار التجربة، ولا نقصد العالم الأكبر، وإنما هذا العالم الصغير، يعني الإنسان الذي نستطيع إخضاعه للتجربة"[32](امزيان:1991)، بمعنى تشيئة الإنسان، فلا يعدو الإنسان بالتالي أن يكون مجرد حالة من جملة الحالات الطبيعية التي تخضع للدراسة العلمية التجريبية.

ب . التحيز ضد الغائية وإسقاط الأبعاد الأخلاقية والنفسية والإرادية:

تبعاً للتحيز السابق (التحيز للطبيعي)، يتم التحيز ضد العناصر الإنسانية غير الطبيعية، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد في الكون صاحب الإرادة الحرة، الذي يبحث عن الغاية في الكون، ويتبع منظومات أخلاقية يحتكم إليها، لذا تشكل في الفكر الغربي نموذج آلي لا يرى في الكون إلا حتميات صارمة ومطلقة تفسر الكون وسلوك الإنسان والحيوان بشكل علمي حتمي، ولا ترى في الإرادة

[30] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص67.
[31] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص67.
[32] ـ امزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الو. م. أ)، ط1، 1991، ص50.

الحرة وفي الأخلاق والأحلام إلا مجرد أوهام وخرافات يجب التخلص منها، وخير من عبر عن هذا التوجه العلمي الوضعي هو الفيلسوف الفرنسي إميل دوركايم **E.Durkheim(1858. 1917)** حينما صرح قائلاً: "العلم ينبغي له ألا يبحث عن الغايات التي نسعى وراء تحقيقها، وهو لا يميز بين الخير والشر، لأنه لا وجود للخير والشر في نظر العلم"[33](امزيان:1991). وهو ما سيؤدي في نهاية الأمر إلى استئصال كل تفكير ميتافزيقي واستبعاد كل مضمون غيبي أو ديني للظواهر الإنسانية.

ج . التحيز للعام على حساب الخاص:

سمة النموذج المعرفي الغربي أنه نموذج يتحرى الدقة وينشد الصارمة العلمية، وهو ما يدفعه إلى تجريد الظواهر من خصوصياتها إلى أن تصل إلى مستوى تعميمي يفوق الواقع، لتُسد فيه كل الفجوات، وتُصّفى كل الثنائيات، فنصل بعد ذلك إلى صياغة القانون العلمي الطبيعي الذي يربط الإنساني بالطبيعي ويخضع الإنساني للطبيعي، إذ أن غاية أي معرفة (علمية) هي أن تكون معرفة شاملة تسري على جميع الظواهر المماثلة التي يبحثها العلم، ولا شأن لها أبداً بالظواهر في صورتها الفردية.

د . التحيز للمحسوس والمحدود وما يقاس والكمي على حساب غير المحسوس:

يتسم النموذج المعرفي الغربي بالتبسيط، أي أنه يحاول الوصول إلى العناصر البسيطة في أي ظاهرة طبيعية أو إنسانية بغية الوصول إلى المبدأ الواحد البسيط، وهو ما تجسده ظاهرة الواحدية السببية المرتبطة بوحدة العلوم والواحدية المادية[34] (المسيري:2003) التي تسعى إلى البحث عن مركز واحد كامن في المادة، وعن سبب واحد لتفسير الكون.

هـ . التحيز للموضوعي على حساب الذاتي:

يتبنى النموذج المعرفي الغربي وبكل حماسة مقولة الموضوعية العلمية ٰلتي تعني في هذا المستوى أن يتجرد الباحث من خصوصيته الثقافية ومن التزامه الخلقي ومن عواطفه، أن تكون موضوعياً معناه "ألا تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعي"[35](قنصوه:2007)، وهي في الحقيقة (في نظر المسيري) موضوعية متلقية سلبية[36]، تتعامل مع الواقع بحياد تام، والأمر وإن تحقق على مستوى دراسة الظواهر الطبيعية، فإنه على مستوى الظواهر الإنسانية المركبة يصطدم بعوائق وصعوبات جمة تحول دون تحققه، فالحياد في الظواهر الإنسانية أو حيالها يكاد يكون مستحيلا ما دام الإنسان هو الدارس والمدروس.

والتحيز للتقدم (التحيز الأكبر):

[33] ـ المرجع نفسه، ص64.

[34] ـ الواحدية المادية: هي ذاتها الواحدية الكونية، وهي الرؤية القائلة بأن مركز الكون كامن فيه، وأن الإله والإنسان والطبيعة يشكلون وحدة عضوية واحدة، وهذه الرؤية تشكل الإطار المعرفي النهائي لكل الأيديولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة. ينظر إلى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية مج8.

[35] ـ قنصوة، صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر، د ط، 2007، ص66.

[36] الموضوعية المتلقية: يسميها المسيري الموضوعية الفوتوغرافية أو المعلوماتية، وهي موضوعية تكتفي بتسجيل الوقائع ومراكمتها، والنظر إلى الواقع بوصفه واقع بسيط يمكن إدراكه بسهولة ورصده بحياد شديد (المسيري يرفض هذه الموضوعية المتلقية ويقترح الموضوعية الاجتهادية بديلاً عنها أو مصطلح أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية لتجاوز الاستقطاب الحاد بين الذاتية والموضوعية).

يؤمن المسيري بأن مفهوم التقدم كما صاغه النموذج المعرفي الغربي هو أكثر المفاهيم حضوراً في واقع الناس وفي أحلامهم" فقد أصبح التقدم هو هدف الناس"[37](المسيري:1998)، (فكل شيء يتم من أجل التقدم، فالتقدم هو الغاية والمرجعية النهائية للحضارة الغربية، حيث تستند فكرة التقدم في النموذج المعرفي الغربي إلى مفهوم التراكم المادي، ومن أجل ذلك يتم استغلال واستخدام كل الموارد الطبيعية واستنزافها. إن مفهوم التقدم الغربي بسمته المادي، يمثل في نظر المسيري "الإجابة الغربية المادية على السؤال الخاص بالهدف من وجود الإنسان في الكون"[38]، فالإنسان إنما وجد من أجل إحراز مزيد من التقدم المادي الذي لا نهاية له. وأخطر ما في نموذج التقدم الغربي هو أن يؤدي في النهاية إلى تقبل مسلمة تفوق الغرب وعالميته، فتصبح معاييره للتقدم نموذجاً قياسيا للبشرية جمعاء، ويغدو اللحاق بالغرب أسمى أمنية تطمح إلى تحقيقها مشاريع النهضة في كل مكان خارج البقعة خارج العالم الغربي، وذلك دون النظر في الخصوصيات الحضارية والمعادلات الاجتماعية.

3/3 نقد النموذج المعرفي الغربي:

بعد تحليله لطبيعة النموذج المعرفي الغربي وتوضيح خصائصه وسماته العامة والكشف عن تحيزاته، انصب اهتمام المسيري على ممارسة النقد المنهجي والمعرفي، والذي من شأنه أن يبرز تهافت النموذج المعرفي الغربي وتآكل مرجعياته، وبيان أوجه قصوره، ومدى ضيق نطاقه ومحدودية نتائجه وعدم ملاءمته للفطرة الإنسانية.

ممارسة النقد المنهجي على مسلمات ومنطلقات النموذج المعرفي الغربي، لا يعني التنكر التام لمزاياه ومحاسنه، أو النظر إليه كأنه كله شراً مطلق أو فشلاً محقق، إنما النقد هو رغبة جادة للتحول من حالة التبعية المطلقة والعمياء للنماذج المعرفية الغربية إلى حالة المساءلة والمراجعة المعرفية والمنهجية لأصوله وخلفياته الفلسفية والثقافية، والسعي بعد ذلك إلى إزاحته عن مركزيته، وتقديم بدائل معرفية تستجيب لتطلعات الأمة وتعبر عن رؤيتها الكلية، وقد ذهب المسيري في هذا الصدد إلى أن "كل من يود أن يطور مشروعاً معرفياً حضاريا مستقلاً عليه أن يبدأ . شاء أم آبى بنقد المشروع الغربي نظراً لذيوعه وهيمنته"[39](المسيري: دون سنة).

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، قدم المسيري ورقة بحثية مهمة عنوانها:(الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية)[40] تطرق فيها إلى بعض العناصر التي نجملها في الآتي:

1/3. تأكيد نسبية الغرب:

يهدف النقد إلى توضيح مدى نسبية النموذج المعرفي الغربي، وذلك بالتخلص من الإحساس المتصاعد بمركزيته، ونزع صفة العالمية والمطلقية عنه، "فإذا كان الغرب قد تحول إلى مطلق، فإنه يجب أن يستعيد نسبيته"[41](المسيري: دون سنة)، أي يجب أن ينظر إلى الغرب بوصفه بقعة جغرافية متعينة وتشكيل حضاري ضمن تشكيلات حضارية أخرى، وليس عالمياً ومطلقاً.

2/3 تراجع المركزية الغربية:

[37] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص76.
[38] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، ص72.
[39] ـ المسيري، عبد الوهاب (الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية)، مصدر سابق، ص125.
[40] ـ المقال نشر على صفحات مجلة إسلامية المعرفة الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 5، السنة 2، (د، س)
[41] ـ المسيري، عبد الوهاب (الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية)، ص126.

لقد عرفت الحضارة الغربية في لحظتها الراهنة . حسب المسيري . نوعاً من التراجع والتقهقر، الذي توشك بسببه أن تفقد مركزيتها وهيمنتها، فقد ظهرت مراكز حضارية جديدة ناجحة مثل اليابان والصين ودول شرق آسيا وبعض دول أمريكا اللاتينية، وبالتالي لم يعد النموذج الحضاري الغربي هو النموذج الوحيد والمطلق الذي يجب على العالم أن يحذو حذوه ويسير في ركابه.

3/3 دراسة أزمة الحضارة الغربية:

من نافلة القول، أن النموذج المعرفي الغربي قد حقق نجاحات مادية وحضارية باهرة لا يمكن إنكارها، لكن بالرغم من ذلك، هناك جوانب ضعف ومواطن خلل اعترت تطبيقاته، أدت إلى أزمات حادة ومتعددة أصابت البشرية في مقتل. لذا فإن دراسة تجليات أزمة الحضارة الغربية المعاصرة والبحث في عللها وأثارها، يعد ضرورة ملحة وخطوة مهمة، وقد كانت مدرسة فرانكفورت (معهد الأبحاث الاجتماعية لفرانكفورت)[42] (بومنير:2010) سباقة إلى هذه الخطوة، حيث اتخذت من أزمة الحضارة الغربية موضوعاً للدراسة العلمية والفلسفية، حيث لعب رواد هذه المدرسة دوراً هاماً في رصد مختلف الأعراض الباثولوجية (المرضية) التي عرفتها المجتمعات الغربية كالتشيؤ والاغتراب والهيمنة وضياع المعنى.

3/4المراجعات الجديدة للعلوم الغربية:

ترتفع العديد من الأصوات اليوم للمطالبة بضرورة إعادة النظر في المسلمات العلمية والمنهجية التي قامت عليها العلوم الغربية المعاصرة، خاصة ما تعلق منها بالتاريخ الغربي، حيث يدعو البعض إلى إعادة كتابة تاريخ الاستعمار من منظور الشعوب المستعَمرة التي عانت من ويلات الهيمنة الغربية، حيث لم يتوانى الغرب الامبريالي عن سحق هوية الدول المستعمَرة وتبديد مقدراتها بذرائع واهية، مرة باسم نشر الحداثة والتقدم، ومرة باسم الديمقراطية وأخرى باسم الحرية وحقوق الإنسان. ضف إلى ذلك تنامي ظاهرة مراجعة أسس ومنطلقات علم النفس وعلم اللغة الغربيين، حيث كشفت هذه المراجعة عن مدى الخلل المعرفي والأخلاقي الذي وقعت فيه بعض نظريات علم النفس وعلم اللغة، وهي توضح عمق الأزمة المعرفية والمنهجية التي تعيشها العلوم الطبيعية منذ فجر القرن العشرين إلى اللحظة الراهنة.

4/4توضيح نقائص النموذج المعرفي الغربي:

يؤكد المسيري على خطوة أساسية لا بد منها للتحرر من القبضة الفولاذية للنموذج المعرفي الغربي، ومن هيمنته على العقول والقلوب، تتمثل هذه الخطوة في إظهار وتوضيح نقاط ضعف النموذج المعرفي الغربي ومواطن قصوره، والتي يمكن حصرها في العناصر الآتية:

[42] ـ مدرسة فرانكفورت (معهد الأبحاث الاجتماعية لـ فرانكفورت): هو حركة فلسفية ـ اجتماعية ـ نفسية، نشأت بمدينة فرانكفورت الألمانية سنة 1923م، بدأ انبثاقها التاريخي ببروز أفكار أدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وماركوزMarcuse، حيث تناول أعضاء هذه المدرسة مفاهيم: العقل الأداتي وثقافة البعد الواحد والهيمنة والتقانة وغيرها.. وقد أطلق على هذه المدرسة تسمية النظرية النقدية مع نشر هوركهايمر مقاله التأسيسي المشهور (النظرية التقليدية والنظرية النقدية) الذي عرض فيه مفهوم النقد الذي يجب أن ينصب على المجتمعات الغربية المعاصرة قصد الكشف عن آليات السيطرة والهيمنة التي تتحكم في الأفراد والجماعات. ينظر إلى: بومنير كمال، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان والجزائر، ط1 ،2010ـ وينظر أيضا: المحمداوي، علي عبود، الإشكالية السياسية للحداثة، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الجزائر، المغرب، ط1، 2011.

1/4: انه نموذج معادٍ للإنسان:

بحسب قناعة المسيري، فإن النموذج المعرفي الغربي يضمر نزعات عدمية معادية للإنسان، فهو مشروع يقوم على تصفية ظاهرة الإنسان كظاهرة متفردة ومتميزة في الكون، لأنه يركز على البُعد المادي الحسي وينكر أو يهمش الأبعاد الروحية والميتافيزيقية للإنسان.

2/4 استحالة المشروع المعرفي والحضاري الغربي:

يسعى المشروع المعرفي الغربي إلى أن يلغي كل المسافات الموجودة بين الظواهر، وأن يسد كل الثغرات بين الظواهر المختلفة، ليصل إلى القانون العلمي العام، لكنه "مشروع مستحيل من الناحيتين المعرفية والعملية"[43](المسيري:1998)، فمن الناحية المعرفية يتصور هذا النموذج أن الواقع بسيط ومسطح، يمكن إزالة كل الفوارق فيه بين الدال والمدلول والأسماء والمسميات، لتتحقق المعرفة التامة، وهي غاية عزيزة التحقق، صعبة المنال، ما دام الواقع ليس كما يبدو للوهلة الأولى، فهو مركب ومعقد ومتشابك العناصر والأجزاء، بحيث تصبح الإحاطة بكل تفاصيله مسألة مستحيلة، أما من الناحية العملية، فإن المشروع الحضاري الغربي مبني على الرغبة الشديدة في التحكم والسيطرة على الأشياء من المتناهية في الصغر إلى المتناهية في الكبر، لتتجسد نبوءة فرنسيس بيكون في (أن يصبح البشر) أسياداً على الطبيعة وليس فقط أبناءً لها. لكن هذه الرغبة ستصل إلى طريق مسدود، لأن الإنسان أضعف من يحيط علماً بكل شيء فضلاً عن أن يتحكم في الكون ويسيطر عليه، أنه أعجز. بالرغم من الترسانة العلمية التي امتلكها . أن يتحكم في نفسه التي بين جنبيه فكيف يتحكم في العالم المستقل عنه؟

4/3 فشل النموذج المعرفي الغربي في تفسير ظاهرة الإنسان:

يتمتع النموذج المعرفي الغربي بمقدرة هائلة على رصد حركة الأشياء ودراستها بأسلوب علمي رصين، إلا أن هذه المقدرة مرتبطة أساساً بالجوانب المادية من الأشياء فقط، في حين أن الإنسان ظاهرة تتجاوز المُعطى المادي الخالص، سلوكه سواءً في نبله أو ضعته، في بطولته أو خساسته ليس ظاهرة مادية محضة، إنما هو ظاهرة مركبة لأقصى حد، تتشكل من مشاعر وأحاسيس، ويتداخل فيها الحس الخلقي بالحس الجمالي، وهي أمور لا يمكن تفسيرها على أساس مادي بحت، ومن هنا فشلت النماذج المادية في تفسير إصرار الإنسان على أن يجد معنى للكون، بل أنه حينما يفقد معنى الوجود يفقد معه كل رغبة في الاستمرار والبقاء، ولأن العلم في نموذجه المادي لم يستطع أن يجيب عن أسئلة الإنسان الكلية والنهائية، فقد لجأ الإنسان دائما إلى الفن والدين، لأن الدين والفن كما يرى علي عزت بيجوفيتش "مرتبطان بالإنسان منذ أن وجد على الأرض، أما العلم (المادي) فهو حديث"[44](بيجوفيتش:1994)، ولأنه يدور في إطار نماذج مادية خالصة، فقد فشل في تفسير الإنسان وإيجاد حلول ناجعة لمشاكله النفسية والروحية المتزايدة بحدة يوما بعد يوم.

خاتمة:

ختاماً، يمكننا القول أن المقاصد الكبرى والغايات الأسمى من وراء المشروع الفكري للراحل عبد الوهاب المسيري، والقائم على دراسة النماذج المعرفية وتوظيفها ونقد المنظور الغربي لها، لم يكن غرضه الدعوة إلى رفض النماذج المعرفية والحضارية

[43] ـ المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، مصدر سابق، ص89.
[44] ـ بيجوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بفاريا، ألمانيا، مجلة النور الكويتية، الكويت، ط1، 1994، ص144.

الغربية والقطيعة معها، فالحضارة -كما يقول علي عزت بيجوفيتش-" لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك، إنما الشيء الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها، فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنسنة هذا العالم"[45](بيجوفيتش:1994)، إذن ممارسة النقد هو من جهة رغبة في التقليل من سطوة النموذج الغربي ودرء عيوبه ومفاسده، ومن جهة ثانية خطوة في طريق تأسيس نموذج معرفي إنساني بديل[46](المسيري:1998) ينتصر ويعلي من شأن كل ما هو إنساني ويحافظ على خصوصياته الثقافية والحضارية ويستميت في الدفاع عن قيمه الوجودية العليا والمطلقة.

وكما رأينا فإن مقولة النموذج المعرفي تحتل مكانا مركزيا في كتابات المسيري، فالنموذج بمثابة المفتاح لفهم كل ما دونه المسيري وما أبدعه من نظريات وأفكار، والنموذج دائما يأتي مقرونا بالمعرفي، لأن المعرفي هو الذي يحدد الإجابات النهائية والكلية للنموذج والتي تتحدد في جدلية الله والانسان والطبيعة، ومن هذا المنطق فإن دراسة الحضارة الغربية تقتضي استفراغ الجهد في الكشف عن النموذج المعرفي الغربي، وتعريت تحيزاته، فلكل حضارة نموذجها ولكل نموذج تحيزاته. فالأحرى بكل ممارسة نقدية أن تتوجه إلى نقد الأصول والمرجعيات الكامنة للحضارة الغربية، لا الاهتمام بنقد أعراضها ومظاهرها وتجلياتها المختلفة. ومن خلال توظيفه لمنهجية النماذج المعرفية والتركيز على استجلاء النموذج الكامن استطاع المسيري أن يقدم مقاربة نقدية منهجية للحداثة والعولمة والفلسفات المادية الواحدية الغربية، وأن يدعو إلى فتح باب الاجتهاد واستئناف النظر في كل المقولات باعتبارها لا نهائية، وفي استحالة التفسير الواحدي الكامن للظواهر، وبالتالي الحاجة إلى مرجعية متجاوزة يندمج فيها عالم الغيب بعالم الشهادة وتتحقق فيها جدلية الغيب والانسان والطبيعة.

الهوامش:

1- ولد د. عبد الوهاب المسيري بدمنهور إحدى محافظات مصر عام 1938م حصل على الدكتوراه في الأدب الانجليزي المقارن من جامعة رتجرز الأمريكية، للمسيري العديد من الدراسات والابحاث التي تتوزع بين النقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والقصة وأشهر أعمال نجد: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، توفي المسيري في 3 من يوليو عام 2008.

2- تبلور مصطلح النموذج paradigm في بدايته على يد توماس كون في كتابه " بنية الثورات العلمية"الذي ألفه عام 1962 حيث أعطى لهذا المفهوم أكثر من عشرين دلالة مختلفة حصرها في الأخير في دلالتين: الأولى عامة سماها الاجتماعية

[45] ـ بيجوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب، مرجع سابق، ص87.

[46] ـ قدم المسيري تصوره عن نموذج معرفي بديل اسماه تارة النموذج الحداثي العربي وتارة النموذج الحداثي الإنساني، وهو نموذج يصفه بكونه نابعاً من التراث الحضاري للأمة، ويتمتع بسمات تختلف عن سمات النموذج المعرفي الغربي.
ينظر إلى: المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، من ص92إلى ص102.

والثانية خاصة سماها الدلالة الابستمولوجية. ينظر: بنية الثورات العلمية، كون توماس، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد168، 1992.

3- . الواحدية المادية: هي ذاتها الواحدية الكونية، وهي الرؤية القائلة بأن مركز الكون كامن فيه، وأن الإله والإنسان والطبيعة يشكلون وحدة عضوية واحدة، وهذه الرؤية تشكل الإطار المعرفي النهائي لكل الأيديولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة. ينظر إلى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية مج8.

4- الموضوعية المتلقية: يسميها المسيري الموضوعية الفوتوغرافية أو المعلوماتية، وهي موضوعية تكتفي بتسجيل الوقائع ومراكمتها، والنظر إلى الواقع بوصفه واقع بسيط يمكن إدراكه بسهولة ورصده بحياد شديد (المسيري يرفض هذه الموضوعية المتلقية ويقترح الموضوعية الاجتهادية بديلاً عنها أو مصطلح أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية لتجاوز الاستقطاب الحاد بين الذاتية والموضوعية).

5- مدرسة فرانكفورت (معهد الأبحاث الاجتماعية لـ فرانكفورت): هو حركة فلسفية . اجتماعية . نفسية، نشأت بمدينة فرانكفورت الألمانية سنة 1923م، بدأ انبثاقها التاريخي ببروز أفكار أدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وماركوزMarcuse، حيث تناول أعضاء هذه المدرسة مفاهيم: العقل الأداتي وثقافة البعد الواحد والهيمنة والتقانة وغيرها.. وقد أطلق على هذه المدرسة تسمية النظرية النقدية مع نشر هوركهايمر مقاله التأسيسي المشهور (النظرية التقليدية والنظرية النقدية) الذي عرض فيه مفهوم النقد الذي يجب أن ينصب على المجتمعات الغربية المعاصرة قصد الكشف عن آليات السيطرة والهيمنة التي تتحكم في الأفراد والجماعات. ينظر إلى: بومنير كمال، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان والجزائر، ط1 ،2010. وينظر أيضا: المحمداوي، علي عبود، الإشكالية السياسية للحداثة، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الجزائر، المغرب، ط1، 2011.

6- قدم المسيري تصوره عن نموذج معرفي بديل اسماه تارة النموذج الحداثي العربي وتارة النموذج الحداثي الإنساني، وهو نموذج يصفه بكونه نابعاً من التراث الحضاري للأمة، ويتمتع بسمات تختلف عن سمات النموذج المعرفي الغربي.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج1، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999

2- المسيري، عبد الوهاب، إشكالية التحيز، الجزء الأول، فقه التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فيرجينيا (الو م أ)، ط1، 1996

3- المسيري، عبد الوهاب، الإنسان والحضارة والنماذج المركبة، سلسلة الهلال، مصر، العدد 622، 20

4-المسيري، عبد الوهاب، والعظمة، عزيز، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط2000

5 . المسيري، عبد الوهاب، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997

6 . المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج8

7-المسيري، عبد الوهاب، دفاع عن الإنسان، دار الشروق، القاهرة، ط8، 2014

8 . المسيري، عبد الوهاب، حوار مع جريدة المستقلة، العدد262، السنة السابعة، 1999

9 . المسيري، عبد الوهاب (في أهمية الدرس المعرفي) مجلة إسلامية المعرفة، السنة السادسة، العدد 20، 2000، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الو م أ)

10 . المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مج1، مج2، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002

11- المسيري، عبد الوهاب، رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمر، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط1، 2000

12- المسيري، عبد الوهاب، العالم من منظور غربي، سلسلة الهلال، القاهرة، د ط ، 2001

13- المسيري، عبد الوهاب، التريكي، فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2012

14- المسيري، عبد الوهاب (الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية)

15-المسيري، عبد الوهاب، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2005م

16- المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادية وتفكيك الانسان، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002م

17- المسيري، عبد الوهاب، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2006

18. بكار، عبد الكريم، تكوين المفكر، مؤسسة الإسلام اليوم، دار وجوه للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2011

19. كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة: جلال، شوقي، عالم المعرفة، الكويت، العدد 168، 1992.

20. دواق، الحاج بن أحمنة، (المنهج المعرفي التوحيدي عند عبد الوهاب المسيري: مدخل إلى الإبستمولوجيا التوحيدية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد68، السنة 17، 2012، المعهد العالمي للفكر الإسلامي

21 . آبادي، الفيروز، القاموس المحيط، دار الهدى، الجزائر، د ط . د س

22 . حنفي، حسن، حصار الزمن ، مج 1 إشكالات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007

23. بلعقروز، عبد الرزاق، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009

24. مرزاق، أحمد (النموذج المعرفي ونموذج المسيري الحضاري) كتاب عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده، دار الفكر، دمشق، 2007

25 . امزيان، محمد، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الو م أ)، ط1، 1991

26 . محمد عارف، نصر، ابستمولوجيا السياسة المقارنة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002

27 . قنصوة، صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر، د ط، 2000

28 . بيجوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بفاريا، ألمانيا، مجلة النور الكويتية، الكويت، ط1، 1994

السيرة الذاتية للمؤلف

لحسن عبد المالك: طالب باحث متحصل على ماجستير في الفلسفة تخصص النقد وقضايا المنهج، طالب دكتوراه جامعة وهران2 محمد بن أحمد.